الدكتور محمد البهي

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

تفسير سورة الروم

297

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية ـ عابدين
تليفون : ٩٢٣٧٤٧٠

اهداءات ٢٠٠٢

أ.د/ مصطفى الصاوى الجوينى

الاسكندرية

الدكتور محمد البهى

التفسير الموضوعى للقرآن الكريم



تفسير سورة الروم

القرآن فى مواجهة المادية

الناشر
مكتبة وهبــة
١٤ ب شارع الجمهورية ـ عابدين
القاهرة ت ٩٢٧٤٧٠

الطبعـة الأولى

رمضان سنة ١٤٠٠ هـ ـ يولية سنة ١٩٨٠ م

دار غريب للطبـاعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
تليفون : ٢٢٠٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الروم

تمهيد عام لتحديد الجو الذى نزلت فيه السورة :

• كان الوحى بسورة الروم فى سنة ٦١٥ ، أو فى سنة ٦١٦ م . وكان الرسول عليه السلام إذ ذاك بمكة .

• وكان هناك حلف قائم بين فارس من جهة ، وقريش بمكة من جهة أخرى . واتخذ القرشيون من هذا الحلف سنداً ضد الرسول عليه السلام ، وضد دعوته ، وفى قسوتهم فى معاملته ومعاملة أصحابه رضوان الله عليهم .

• وبوحى السورة أعلنت هزيمة الرومان فى أدنى الأرض وهو الشرق الأدنى ، على يد الفرس . فإعلان الهزيمة إذن كان فى سنة ٦١٥ ، أو فى ٦١٦ م ،وفى هذا الوقت بالذات أعلن الوحى كذلك : عودة النصر للرومان ، ولكن بعد مرور بضعة سنوات .

***

• ووقعت هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة فى سنة٦٢٢م ، وفى السنة الأولى من الهجرة ، أى بعد سبع سنوات من إعلان هزيمة الرومان وفى هذه السنة تحقق ما وعد به القرآن من نصر الرومان على الفرس ، بعد بضع سنين من هزيمتهم : « **وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد** »(١) . . وبنصر الرومان واستعادتهم بيت المقدس

---

(١) الروم : ٣ ـ ٤ .

فى الشرق الأدنى لم تعد مقاومة القرشيين فى عنفها للرسول عليه السلام ، ولرسالته على نحو ما كانت عليه بمكة من قبل .

***

• وفى سنة ٦٢٤ م ، أو فى السنة الثانية من الهجرة وقعت غزوة « بدر » وانتصر فيها المسلمون على قريش انتصاراً فاصلا بين عهدين : عهد مضى ، وهو عهد الجاهلية أو طغيان المادية . . وعهد قام ، وهو عهد سيادة القيم الإنسانية ، عن طريق الدعوة إلى الإسلام : « **كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد . الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، وويل للكافرين من عذاب شديد . الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، ويصدون عن سبيل الله ، ويبغونها عوجاً ، أولئك فى ضلال بعيد** »(١) . . وبنصر المؤمنين فى غزوة « بدر » تحقق وعد لله آخر . وهو ما جاء هنا فى قوله تعالى : « **ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله**»(٢) . . وفرح المؤمنين بنصر الله هو فرحهم بالنصر فى موقعة « بدر » وليس هو نصر الروم على الفرس . فالروم والفرس سيان فى الطغيان بالمادية . وطغيان المادية فى الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية كان التوقيت الزمنى لإرسال الرسول محمد عليه الصلاة والسلام . وانتهاء الصراع بين الإمبراطوريتين إلى نصر فارس وهزيمة الروم أولا . . ثم إلى نصر الروم وهزيمة فارس ثانياً : يدل على قرب نهايتهما معاً . ونهايتهما كانت بيد المسلمين . والنصر « ببدر » كان بدء الانطلاق إذن نحو تبديد ظلام المادية فى شبه الجزيرة ، ثم فى الإمبراطويتين الرومانية والفارسية ، أى فى العالم كله تقريباً .

ونصر المسلمين « ببدر » كذلك كان الأمارة الواضحة لفاعلية الدعوة

---

(١) ابراهيم : ١ ـ ٣ .   (٢) الروم : ٤ ـ ٥ .

الإسلامية فى تحقيق رسالتها ، وهى القضاء على الجاهلية على عهدها . وهى ليست جاهلية قريش بمكة ، ولاجاهلية العرب المشركين فى شبه الجزيرة ، فقط . بل هى الجاهلية العالمية التى كانت سائدة فى العالم وقت الرسالة . ومن هنا لم تكن رسالة المصطفى رسالة « محلية » أو عربية . وإنما هى رسالة إنسانية عالمية .وخروج المسلمين العرب من شبه الجزيرة حاملين دعوة الإسلام إلى مواقع الإمبراطوريتين : الفارسية ، والرومانية ، لم يكن غزواً ولا اقتحاماً لإمبراطوريات أجنبية عن جزيرة العرب ، مكان الدعوة . وإنما كان أداء لرسالة حملوها وكلفوا بها . وهى رسالة القيم الإنسانية ، وإحلالها محل المادية الطاغية . وهى ما يسميها القرآن بالجاهلية .

● والقرآن بلغته العربية . . والصراع أولا بين المشركين بمكة ، وهم الجاهليون ، وبين المؤمنين فيها ، برسالة للرسول محمد عليه السلام ، وهم الإنسانيون : لاينبغى أن يحدد رسالة الله هنا بأنها رسالة للعرب ، ولشبه الجزيرة . وعندئذ : الخروج بها من شبة الجزيرة إلى العالم فى ذلك الوقت : إلى الروم غرباً وفارس شرقاً ، يعد دعوة بالسيف لنشر الإسلام ! ! إذ أن ما وقع من اختيار الرسول محمد عليه السلام كخاتم الأنبياء والرسل : يحتم أن تكون اللغة لآخر كتاب سماوى هى اللغة العربية وأن تكون المجموعة التى تدعى أولا للإيمان بالكتاب السماوى الجديد ، مجموعة عربية ، طالما الرسول كان عربياً ، وفى شبه الجزيرة العربية .

والرسول إذا كان عربياً فالمسلك الطبيعى للدعوة إذن يوجب أن تكون العربية لغتها ، وأن يكون أول المؤمنين به من العرب ، وأن يتخذ الرسول من هؤلاء المؤمنين به : حماة لدينه ، وجسراً تعبر عليه دعوته إلى غير العرب. وهم الماديون الطغاة فى أى مكان . فمكة — وشبه الجزيرة كلها — كانت فقط نقطة ارتكاز لدعوة الإسلام . والعرب الذين آمنوا بها كانوا سندها خارج شبه الجزيرة بعد ما ساندوها فى الداخل .

، وهكذا كانت رسالة الإسلام ــ طالما هى رسالة القيم الإنسانية ــ فى مواجهة طغيان المادية أو الجاهلية فى أى مكان : رسالة عالمية : . ، وليست رسالة « محلية » أو عربية . وقتال المؤمنين بها : غيرهم من المشركين أو من الكافرين من أهل الكتاب فى أى مكان كان ليردوا اعتداءاتهم ، وليس لنشر الرسالة .

***

• فعندما يقال : إن الإسلام انتشر بالسيف ، يريد القائل بهذا القول : المغالطة . إذ السيف كان للدفاع ورد اعتداء الظالمين وهم المعارضون من الماديين .

• وعندما يقال : إن الإسلام كان رسالة محمد إلى العرب ، يريد القائل بهذا القول أيضاً : المغالطة . إذ الإسلام جاء لمقاومة طغيان الجاهلية أو المادية أينما توجد . بين العرب ، أو غيرهم . والرسول محمد عليه السلام كانت رسالته إذن للناس جميعاً : **« وما أرسلناك إلا كافة للناس ، بشيراً ونذيراً ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون »**(١) .

إن الأمر الذى يحدد « عالمية » الرسالة الإلهية التى جاء بها الرسول محمد ابن عبد الله . هو موضوعها ، وليس مكان الدعوة ، ولا لغة الكتاب الذى أنزل عليه . فإذا اتجه القرآن فى بعض آياته إلى العرب فعلى أساس أنهم نمط من الناس المدعوين إلى اتباعه . والدورة التى استغرقتها الدعوة الإسلامية فى تحويل المجتمع فى شبه الجزيرة ، ونزل الوحى فيها تباعاً فى ثلاثة وعشرين عاماً : هى الدورة التى يستغرقها عادة : انتقال أى مجتمع من المادية الطاغية.. إلى الإنسانية فى مستواها الفاضل .

---

(١) سبأ : ٢٨ .

• وهكذا : يخبر القرآن مقدماً ، فى سورة الروم ، بنصر الرومان ، وبإعادة بيت المقدس فى حوزتهم : « **وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين** »(١) . .

• كما يخبر مقدماً بنصر المؤمنين فى « بدر » على المشركين فى قريش ، إذ يقول : « **ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله** »(٢) . وإذا كان قد مر سبع سنوات قبل تحقيق نصر الرومان باستعادة بيت المقدس من الفرس ، فقد مر تسع سنوات ، من سنة ٦١٥ وهى السنة التى أخبر الله فيها بنصر المؤمنين « ببدر » .. إلى سنة ٦٢٤ م وهى السنة التى وقع فيها النصر فعلا للمؤمنين فى موقعة « بدر » .

• **مقدمة السورة :**

أولا : تتحدث السورة فى مطلعها عن الصراع بين الفرس والروم كقوتين عالميتين فى ذلك الوقت : إحداهما وثنية ، والأخرى مسيحية وصلت إلى الحضيض فى العبث والفساد . وهما سواء فى المادية والجاهلية . وربما الصراع آنذاك يشبه الصراع اليوم بعد الحرب العالمية الثانية ، بين القوتين الكبريين . وتخبر بانتصار الروم على فارس بعد أن ألحقت فارس الهزيمة بالروم فى الشرق الأدنى والاستيلاء على بيت المقدس سنة ٦١٥ م .

كما تخبر بنصر المؤمنين على مشركى قريش فى موقعة « بدر » فى السنة الثانية من الهجرة (٦٢٤ م) وتربط هزيمة قريش فى « بدر » عندما وقعت بهزيمة فارس فى القدس من قبل سنة ٦٢٢ م ، لما كان بينهما من تحالف.. (الآيات من ١ — ٦) . .

ثانياً : تعرض لقضية « البعث » وتشكك كثير من الناس فى وقوعه . وتكاد تكون جميع آيات السورة وقفاً على هذه القضية . وتلفت نظرهم

---

(١) الروم : ٣ — ٤ .
(٢) الروم : ٤ — ٥ .

إلى شواهد عديدة من الوجود القائم تدل على وقوعه، وتدعوهم إلى تبصرها. والبعث بعد الشرك قضية رئيسية من قضايا الماديين أو الجاهليين فى كل عهد من عهودهم . والسورة إذ تدعوهم هنا إلى تبصر هذه الشواهد : تقدم بين يدى هذه الشواهد : أن الماديين عادة يقف علمهم عند حد الظاهر من هذه الحياة الدنيا . وقلما يصلون إلى الوجود الأخروى . لأن تعلقهم بما فى الدنيا ، وقد طغوا به ، يحول بينهم وبين استمرار النظر إلى المرحلة الثانية فى وجود الإنسان ، وهى المرحلة التى تلى البعث (آية ٧) .

• وتسوق السورة من الشواهد التى توضح الحجة على وقوع البعث فتلفت النظر إلى :

(أ) الإنسان فى طبيعته . . وما خلق الله من السموات والأرض . . وما بينهما. إذ يكفى التفكير فى خلقهما ، وفى دقائق هذا الخلق ، وفى غاياته، ليثق الإنسان بوقوع البعث فى الوقت المعلوم : « **خلق الإنسان . علمه البيان . والشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر يسجدان . والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا فى الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان . والأرض وضعها للأنام . فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام . والحب ذو العصف والريحان** »(١) .

(ب) وإلى التاريخ وأحداثه . فمراجعته توضح مصائر المجتمعات البشرية . وخاصة منها : تلك التى كفرت بالبعث . وهى التى طغت بالمادية . طغت بالقوة ، والعمران . . وانتهت إلى أسوأ ما ينتهى إليه مجتمع لا يؤمن بالبعث . كما تلفت النظر :

(ج) إلى كنه البعث وحقيقته. وحقيقته لا تعدوا أن تكون إعادة لما خلق من قبل. والمنطق لا يجد صعوبة إطلاقاً فى الإيمان بأن « إعادة الخلق » أيسر على

---

(١) الرحمن : ٣ ـ ١٢

الخالق من « بدئه » . والله هو الخالق الذى له القدرة الكاملة . ومظاهر كما له فى قدرته :

١ــ أنه يخرج الشيء من نقيضه ، فيخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى . . ويحيي الأرض بعد موتها . ومن يستطيع أن يخرج الشيء من نقيضه يستطيع أن يخرج الميت من قبره حياً يوم القيامة ، وذلك هو البعث .

٢ــ وأنه خلق الإنسان فى بدء أمره من تراب ثم تكاثر بعد ذلك : **« ألم يك نطفة من منى يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين : الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى »**(١) .

٣ــ وأنه خلق من الطبيعة الإنسانية الواحدة زوجين : ذكراً وأنثى ، وأن التقابل بين الذكورة والأنوثة لم يكن للصراع ولا للجفوة والخصومة. وإنما كان للمودة والرحمة بينهما ، مما يدل على القدرة الكاملة لله جل جلاله.

٤ــ وأنه جعل الناس مختلفين فى اللغة ، وفى اللون ، مع أنهم جميعاً من طبيعة واحدة . وأن السموات والأرض مع التفاوت بينهما مخلوقة له وحده .

٥ــ وأنه قسم الزمن إلى ما يعين الإنسان على السعى والعمل فى سبيل رزقه ، وإلى ما يساعده على الراحة والاستجمام ، فجعل النهار والليل .

٦ــ وأنه جعل البرق أمارة على الخوف بتحوله إلى صواعق . . أو أمارة على الأمل والرجاء فى الخير ، عندما تسقط به الأمطار على الأرض فيحييها بعد موتها . فالشيء الواحد يمكن بقدرة المولى جل جلاله أن يكون مصدراً للخير ، والشر معاً .

---

(١) القيامة : ٣٧ ــ ٤٠ .

٧– وأنه هيأ الأرض والسموات لتلبى نداءه سبحانه عند البعث ، فإذا بالناس جميعاً خارجون من بطونها وهم أحياء .

٨– وهو جل جلاله أخيراً صاحب الوحدة فى الألوهية ، لا شريك له فيها. ومن لا شريك له فى أمر ما لا يقيد تصرفه فيما يملك ويقدر عليه : أجنبى عنه .

(هـ) كما تلفت السورة النظر إلى أن السبب فى إنكار البعث ، هو : أن المنكرين له يتبعون أهواءهم ، دون اتباعهم هدى الله . مع أن هدى الله هو المنهج الملائم لخصائص الطبيعة البشرية .

ولذا يجب على الرسول عليه السلام والمؤمنين برسالته – لكى يتجنبوا الأخطاء والمخاطر فى سبيلهم – أن يتبعوا هدى الله وحده . فهو الفطرة التى فطر الناس عليها ، والتى لاتتبدل بحال . وباتباع هدى الله لا تمزقهم الفرقة ، ولا الحزبية التى من شأنها أن تمزق المشركين الذين ابتعلوا فعلا عن الله سبحانه (الآيات من ٨ – ٣٢) .

***

ثالثاً : تتجه السورة إلى الكشف عن جانب من الطبيعة البشرية . وهو أنها عند الاستغناء تجنح إلى الصلافة والاستكبار . وقد تنجرف إلى الشرك . وعند الحاجة تضرع وتذل (الآيات من ٣٣ – ٣٧) . فإنكار وحدة الألوهية ، وإنكار البعث أيضاً يدل على صلافة الإنسان وليس على عدم الدليل معه .

***

رابعاً : توجه الرسول عليه السلام والمؤمنين معه . . إلى سبيل إنفاق المال لشدة حاجات الآخرين . وبالأخص ذوى القربى ، والمساكين ، وابن السبيل . وتخبر بأن الإنفاق للمال ابتغاء وجه الله لمثل هؤلاء هو

الطريق إلى مضاعفة المال ، وليس الربا هو طريق ذلك، كما يعتقد الجاهليون أو الماديون (الآيات من ٣٨ — ٣٩) .

***

خامساً : تعود إلى استهجان الشرك وأمر المشركين . وتقيم الحجة عليهم من فعل الله فى هذا الوجود الطبيعى ، وفى خلق الإنسان ذاته . إذ يكفى فى الاستشهاد على وحدته فى الألوهية : أنه الخالق للإنسان ، والرازق له فى حياته الدنيوية ، ثم بعد موته يحييه ويبعثه . وليس هناك موجود آخر يقدر على ذلك بعده . . وتتحدث إلى الإنسان لتدله على أن العبث فى السلوك والفساد فى الاعتقاد فى المجتمع يرجع إلى كسب الإنسان وعمله، وليس إلى خلق الخالق سبحانه . سينال كل عابث فى هذه الأرض جزاءه المقدم له . والشواهد الماضية تقدم : أن الشرك مصدر العبث والفساد وأن المشركين الذين باشروه لحقهم الجزاء الأوفى (الآيات من ٤٠ — ٤٢) .

***

سادساً : إذا كان العبث والفساد فى هذا العالم مصدره شرك الإنسان. وإذا كان المفسد ينال جزاءه حتما ، فليس هناك من سبيل يبعد عن هذا الفساد سوى الاتجاه إلى هداية الله والتمسك بها . ولذا توجه السورة النصح للرسول عليه السلام بالأخص فى الأخذ بدين الله . فهو دين الفطرة ، وفى نفس الوقت مصدر النجاة والوقاية عندما تشتد الأمور ساعة البعث والفصل فى أعمال الناس (الآيات من ٤٣ — ٤٥) .

***

سابعاً : تعود السورة من جديد إلى ذكر بعض الآيات الدالة على قدرته سبحانه وتعالى ، ومن ثم على قدرته على البعث وإحياء الموتى . فتذكر الريح وكيف يحمل معه السحب ، وكيف تسقط هذه السحب أمطاراً

فى المكان المرجو ، أو فى الزمن المناسب فتحيي به الأرض بعد موتها (الآيات من ٤٨ — ٥٠) .

***

ثامناً : تطمئن الرسول على دعوته ، وتذكر له : أن عدم استجابة المشركين الماديين لهذه الدعوة لا يرجع إلى شيء سوى أنهم : صم لا يسمعون ، وعمى لا يرون نور الحق والهداية . . سوى أنهم : مبيتون الكفر بها والإعراض عنها . وواجب الرسول عليه السلام عندئذ : أن يصبر . فوعد الله حق ، وأنه آت لا محالة . وواجبة كذلك أن لا يستفزه هؤلاء المنكرون للبعث . بإنكارهم إياه . فكل الشواهد فى الوجود تدل على وقوعه حتما ، وأنه داخل فى قدرة الله ومحيط إرادته . فالأطوار التى تعرض للإنسان فى تطوره من ضعف الى قوة ، ومن قوة إلى ضعف : تؤذن بأن الديمومة لوضع معين للإنسان غير واردة فى حياته . والبعث هو طور من أطوار حياته . وسيندم هؤلاء المنكرون يوم تقوم الساعة ويخرج الناس من قبورهم أحياء ، لمواجهة حسابهم على أعمالهم (الآيات من ٥١ — ٦٠) .

والسورة فى استدلالها على وقوع « البعث » على النحو الذى ورد لم تضع البعث كدعوى وتسوق جميع الأدلة واحداً إثر الآخر ، على وقوعه . وإنما كانت تسوق بعض الأدلة عليه وتوضح نتائجها . ثم تأتى ببعض أدلة أخرى وتوضح نتائجها كذلك ، مما يضع فى تصور الإنسان أن إثبات الدعوى — وهى وقوع البعث — يكفى فيه بعض هذه الأدلة التى وردت فى السورة . فإذا اجتمعت الأدلة حينئذ بعضها مع بعض كان اجتماعها تأكيداً للحجية على وقوع البعث . ويكفى إذن أحد الأدلة التى قدمتها السورة على الاقتناع بوقوعه : فى مواجهة من يتشكك فيه ، إذا لم يكن مصراً من قبل على الكفر والمعارضة ، لذات المعارضة فقط .

***

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِيٓ أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ (٧)

يقسم الله سبحانه بثلاثة أحرف من حروف الهجاء العربى . وهى : «أ ، ل ، م» فى قوله تعالى : «ألم . غلبت الروم . فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين» . . على أن الروم ستغلب فى الأرض القريبة من شبه الجزيرة العربية . وهى أرض الشام ، وفى ضمنها فلسطين . . وعلى أنهم سيغلبون ويهزمون عدوهم من جديد بعد بضع من السنين . أى بعد عدد من السنين قد يصل إلى تسع . ومعنى القسم بهذه الأحرف الثلاثة : أن مضمون القسم ، وهو هزيمة الروم من جانب الفرس أولا . . ثم هزيمة الفرس من جانب الروم بعد ذلك أمر واقع لا محالة . وليس فيه شبهة إطلاقاً . وشأن هذا المضمون فى تأكيد وقوعه : شأن الأحرف الثلاثة فى «ألم» فى كونها من حروف الهجاء العربى . فكما لا يتطرق إليها شك من الذين ينتسبون إلى العربية ، كذلك هذا المضمون السابق للقسم لا يتطرق إليه شك إلا من منكر لذات الإنكار .

والمعنى أن الفرس ، وهى إمبراطورية كبيرة ستعتدى على الروم ، وهى إمبراطورية كبيرة أيضاً فى الشرق وفى الغرب ، وستنتصر عليها وتستولى على مدينة «القدس» فى الجناح الشرقى من الإمبراطورية الرومانية . وسيمر بعض الوقت على هزيمة الرومان ، من سبع إلى تسع سنوات . ثم يستعيد

هؤلاء من الفرس ما فقدوه من أراض. وبذلك ينتصر الرومان مرة أخرى على خصمهم العنيف . وهو فارس .

وفارس،والروم كانا يقتسمان النفوذ فى العالم ، على عهد الرسالة للمصطفى عليه الصلاة والسلام . وكان لكل منهما تحالف مع مجموعات أخرى من القبائل أو الشعوب ، وقريش كانت حليفة فارس .

وكان انتصار فارس على عهد الملك : « أنوشروان » فى سنة ٦١٦ ميلادية . أى قبل الهجرة فى سنة ٦٢٢ ميلادية، بينما كان انتصار الرومان على عهد الملك : « هرقل » .. فى السنة الأولى من الهجرة أوفى سنة ٦٢٢ ميلادية .

وهذه الحقيقة مؤكدة بالقسم من الله سبحانه تدل على أن القرآن من الله جل شأنه وموحى به من عنده إلى الرسول عليه السلام ، وليس من تأليفه صلوات الله عليه . كما يدعى المشركون والكافرون برسالتة . فهى إخبار بما سيقع وإن كان أحد يتنبأ بها فلايتنبأ بها على هذا النحو من تحديد الوقت كما لا يتنبأ بها مثل هذا الرسول الأمى .

فهناك الوضع الذى كان قائماً بين الإمبراطوريتين . وهو وضع الجاهلية أو طغيان المادية . وهذا الوضع لابد أن ينتهى إلى زوال كل من الإمبراطوريتين : اليوم أوغداً . . إذ طالما تُفقد المجتمعات القيم الإنسانية فى العلاقات بين الأفراد ، فالصراع بين هؤلاء الأفراد هو صراع من أجل الحياة الدنيوية . ومن أجل ذلك يصل بهم إلى التناحر والهلاك . يضاف إلى هذا الصراع المهلك : مباشرة الترف . والترف طريق إلى العبث والفساد . . كما هو الطريق إلى الظلم والاستخفاف بحياة الآخرين من جانب المترفين . وتلك عواعل ضعف وفرقــة ، وليست عوامل تماسك وبقاء .

وفى العهد الذى جاء فيه المصطفى عليه السلام برسالته كان الوضع فى هاتين الإمبراطوريتين يؤذن بالنهاية الأليمة لهما . هى نهاية الزوال . والمؤرخ اليقظ يربط بين دعوة الرسول صلوات الله عليه وبين زوال الفرس والروم ، وقيام ما يحل محلهما فى تطبيق القيم الإنسانية فى البلاد التى يتنافسون على النفوذ فيها .

وانتشار الدعوة الإسلامية فى بلاد الإمبراطوريتين كان طريقه معبداً . فالناس قد ملوا وكفروا بالفعل بنظم الحكم القائمة ، على أمل أن يجدوا فى غدهم ما يرفع الظلم ويحقق العدل بينهم . وكان ذلك هو الإسلام والدعوة اليه . وطريق الدعوة إلى الإسلام إذن لم يحتج إلى سيف أو قتال . وادعاء ذلك فيه افتراء من جهة ، وتغاض عن الحقائق التاريخية من جهة أخرى . والسيف إذا رفعه حاملو الدعوة ، إنما كان لدفع الاعتداء عليها وعلى حامليها معاً ، من بقايا أصحاب الزعامة والنفوذ فى تلك البلاد .

« لله الأمر من قبل ، ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم » . . أى أن ما يقع من نصر الفرس على الروم أولا . . ثم من نصر الروم على الفرس ، هو أمر يعود إلى الله وحده . وهو قضاؤه فى هذا الكون لحكمة يعلمها هو وستظهر آثارها على الدعوة الى الإسلام . . وعلى المؤمنين بها . فنصر الروم على الفرس — وقد وقع فى السنة الأولى من الهجرة — سيعقبه نصر المؤمنين على مشركى مكة نصراً واضحاً . وعندئذ يفرح المؤمنون بنصر الله لهم . وقد تم ذلك فى غزوة « بدر » فى السنة الثانية من الهجرة ، أو السنة التالية لنصر الروم على الفرس وهى سنة ٦٢٤ ميلادية . ومن العوامل الرئيسية فى نصر المؤمنين على مشركى قريش فى « بدر » . . أن هؤلاء كانوا حلفاء لفارس . وبهزيمة فارس ضعفت قريش ، وضعفت شوكتهم ضد المؤمنين برسالة الرسول عليه السلام . فالهزيمة لقريش كانت لها عوامل . كان من أهمها جو الهزيمة الذى خلقه نصر الروم على فارس ، والإحساس بالعزلة السياسية

بعد ذلك . وتأتى الأهمية كذلك : الهجرة إلى المدينة . لأن بالهجرة انتقل موقع الصراع بين المؤمنين ومشركى قريش إلى مكان يبعد عن زعامة هؤلاء وولايتهم .

وبعض المفسرين إذ يجعل من نصر الروم وهى دولة كتابية — كما يقولون — على الفرس ، وهى دولة وثنية ، موضوعاً لفرح المؤمنين : لايتصل بالواقع لأن الروم كانت إمبراطورية غلب عليها العبث والفساد ، والتحلل ، وطغيان المادية ، رغم أنها تدين بالمسيحية . فكونها تعلن رسمياً : الانتماء إلى المسيحية لايقربها إلى العمل بالرسالة الإلهية . وبذلك تبتعد عن الإمبراطورية الفارسية فى السلوك والمعاملة . كلتا الإمبراطوريتين كانت فى الطغيان المادى والجاهلى ، سواء .

وفرح المؤمنين لايكون إلا بما يمكن رسالة الله فى الأرض . وكانت « بدر » هى الفيصل فى شأن المستقبل بالنسبة للجماعة المؤمنة أو الأمة الإسلامية . وإذا كان المؤمنون يفرحون بنصر الله لهم فى « بدر » فهو نصر ممن هو عزيز لا يغلب . . ورحيم بهم لأنه بهذا النصر مكنهم ، وهم قلة ذليلة ، من الوقوف فى وجه الطغيان بالقوة ، وبالزعامة ، وبالمال . وأحس بهم اليوم بعد النصر من كانوا بالأمس يباشرون السخرية بهم ، وألوان التهديد والتعذيب لهم .

« وعد الله لايخلف الله وعده ، ولكن أكثر الناس لايعلمون . يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون » . . وإذا كان القرآن يعلن فى هذه الآيات : نصر الفرس على الروم ، ثم نصر الروم على الفرس . . ثم نصر المؤمنين فى « بدر » . . معبراً عن هذا النصر بـ« فرح المؤمنين ».. فهى أمور فى علم الغيب . . ولكنها ستتحقق فى وقتها المحدد . لأنها وعد من الله . ووعد الله لايخلفه أبداً . وإن كان كثير من الناس ليسوا على يقين من أن وعد الله لابد أن يتم . فمن يوقن بذلك هو الذى يؤمن بالله ولاينسى الآخرة والمصير إليها . وعدم يقين الكثرة بتحقيق وعد الله يعود إلى سببين رئيسيين :

السبب الأول : أنهم يقفون بعلمهم عند حد الظاهر من هذه الحياة الدنيا . . عند حد مايشاهدون . . ويسمعون .. ويتذوقون .. ويستمتعون . وبذلك لا يعرفون ما وراء هذا الظاهر من أسرار وبالأخص ما وراءه من « سر » الوجود كله وهو الله سبحانه وتعالى .

السبب الثانى : أنهم لاهتمامهم بالدنيا وحدها لا يضعون الآخرة موضع اهتمام لهم . ولذا لا يفتشون عما يوصل إليها . وليس وراء الإيمان بالله من طريق يوصل إليها . وإذن الكفار — ومشركو مكة بالذات — هم الذين لا يصدقون « بوعد الله » . . ولا يؤمنون بأن الله إذا وعد فوعده لا يخلفه إطلاقاً .

وبالحقائق الثلاث : نصر الفرس وهزيمة الروم . . هزيمة الفرس ونصر الروم . . وفرح المؤمنين والرسول عليه السلام بالنصر فى « بدر » . وهى من الغيبيات : تعطى السورة الأمارة الواضحة على صدق الرسول فى رسالته ، وعلى أن القرآن كتاب الله .

***

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾

وتبتدىء الآن السورة توجه نظر المنكرين للبعث إلى أنه يكفى التأمل فى خلق الإنسان . . وخلق السموات والأرض لإقناع المتأمل بعدم إنكار البعث : « أو لم يتفكروا فى أنفسهم ؟ ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى » . . فشأن التفكير فى طبيعة الإنسان ، وأنها طبيعة متطورة خلقت أولا من تراب : « **ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون** »(١) . . يوصل إلى أن الخالق لهذه الطبيعة

(١) الروم : ٢٠ .

قادر على أن يعيدها مرة أخرى . وإعادة خلقها هو بعثها يوم الحساب .
وشأن التفكير فى خلق السموات والأرض : أن يدرك الإنسان : الحكمة فى نظامها . . وترابطها . . وإمكان حياة الإنسان على الأرض ، فى ظل السماء وكواكبها . ومن إدراك هذه الحكمة . . وأنها لتهيئة الحياة للإنسان على الأرض وتحت السماء ، يصل إلى أن وجودها وجود مؤقت ومرهون بوجود الإنسان . فإذا انتهى وجوده وحل موعد انتقاله إلى الآخرة ، انتهى وجودها كذلك . فخلقها إذن لأجل مسمى وموقوت . وإذا انتهى الوجود الإنسانى فى هذه الحياة الدنيا بالبعث انتهى أيضاً وجود ما خلق من أجله ولحياته على الأرض . . « وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون » . ومع أن قدرة الله تتناول « بعث » الإنسان وإعادته من جديد بعد موته إلى الحياة للقاء ربه يوم الحساب فإن كثيراً من المشركين — أو الجاهلين ، والماديين — يكفرون بلقاء الله ، وينكرون « بعث » الموتى من قبورهم للحساب على أعمالهم فى مرحلة حياتهم الدنيوية . ومعنى إنكارهم للبعث : أنهم يعتقدون فى أبدية الوجود الدنيوى . . ويرون أن الدنيا يحل فيها الثواب ، والعقاب معاً ، على الأعمال التى يباشرها الإنسان . فمتعها تمثل الثواب ، بينما الحرمان منها يمثل العقاب . كما يرون: أن الموت إذا أعقبته حياة فهى حياة الجيل ينشأ . والموت والحياة يتعاقبان بين الأجيال ، وليس بين الأفراد بذواتهم ، كما يصوره الإيمان بالبعث .

« أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أشد منهم قوة ، وأثاروا الأرض ، وعمروها أكثر مما عمروها ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » . . ويكفى هؤلاء المنكرون للبعث ، وبالتالى للحياة الآخرة ، والحساب على أعمال الحياة الدنيا : أن يستعرضوا شواهد التاريخ وآثار الإنسان فى المجتمعات الإنسانية التى سبقت : ليتأكدوا من حقيقتين : الحقيقة الأولى : أن من سبق هؤلاء . . المنكرين اليوم ، من أمثالهم من الزعماء السابقين فى المجتمعات الماضية ، كانوا أشد منهم قوة . . وأوسع فى

الرعاية لزراعة الأرض وغرس الأشجار ، وإنشاء الحدائق . . وأكثر عمراناً فى تشييد الأبنية وإقامة العمران ، ونشره .

والحقيقة الثانية : أنه أرسل إليهم الرسل من عند الله ليوضحوا لهم « العدل » فى الحكم ، والمعاملة الحسنة بين الأقوياء ، والضعفاء ويتجنبوا ظلم القوى للضعيف وأثرته لنفسه على غيره ممن لا يستطيع مقاومة اعتدائه.. وأن الله عندما أخذهم فى دنياهم وفى مجتمعاتهم التى كانوا زعماء لها ، جزاء ظلمهم وإنكارهم البعث والحياة الأخروية . لم يظلمهم فى هذا الجزاء . وإنما هم الذين أجرموا بالظلم لغيرهم ، فظلموا بذلك أنفسهم ، واستحقوا عذاب الله لهم فى دنياهم ، قبل آخرتهم . ومما يمثل شواهد التاريخ على ذلك : مجتمعا ثمود . . وعاد . وقد أوجز القرآن فى سورة الحاقة . . جزاء الله لزعمائهما فى قول الله تعالى : « **كذبت ثمود وعاد بالقارعة (أى بالبعث — ويوم القيامة) . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية (الزلزال) . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال ، وثمانية أيام حسوماً ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية**»(١) . فهل استعراض مثل هذه الشواهد التاريخية يحمل المنكرين اليوم للبعث فى عهد الرسول عليه السلام ، وما بعده على أن يعتبروا بما وقع فى المجتمعات الماضية للمستكبرين الكافرين برسالة الله ؟ والإيمان بالبعث فيها يساوق فى اعتبارها : الإيمان بالله ؟ .

« ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى ، أن كذبوا بآيات الله ، وكانوا بها يستهزئون » . . وما صار إليه زعماء المجتمعات الماضية الذين عارضوا رسالة الله وكفروا بما جاء فيها من وجوب الإيمان بالله ، وحده ، وباليوم الآخر ، من عاقبة سيئة : كان جزاء لما ارتكبوه مما هو أسوأ مع المستضعفين فى هذه المجتمعات . فقد ارتكبوا الظلم ، والتفرقة فى المعاملة ، وإنكار الحقوق التى لهم فما وقع منهم تكذيب عملى لهداية الله ، وفى الوقت نفسه:

---

(١) الحاقة : ٤ — ٧ .

استهزاء بها . ولاشك أن عقاب الذين نزل بهم : ينزل بغيرهم أيضاً ممن هم يسلكون طريقهم فى الإنكار . . والعتو . . والطغيان .

« الله يبدأ الخلق ثم يعيده ، ثم إليه ترجعون » . . وتقرر هذه الآية مراحل الحياة للإنسان . فهناك المرحلة التى خلق فيها بقدرة الله . وهى مرحلة الوجود الدنيوى ، أو مرحلة الاختبار بما فى الدنيا من خير وشر . يموت بعدها وقد سجلت أعماله كما وقعت . ثم تأتى مرحلة تالية . وهى مرحلة إعادة الله له من قبره ، حياً ليقف أمام مولاه للجزاء على نوع عمله فى الدنيا ، الذى سجل له . وأعمال الناس المسجلة والتى باشروها فى دنياهم أو فى مرحلة التجربة التى مروا بها يختلف بعضها عن بعض . وهذه المرحلة الثانية فى وجود الإنسان هى التى ينكرها الكثير من الناس ، ممن وقعوا تحت تأثير الطغيان بالدنيا .

« ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ، ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء ، وكانوا بشركائهم كافرين » . . وهذه الإعادة للإنسان بعد موته فى الدنيا أو التقاؤه بمولاه جل جلاله للجزاء يتم فيما يسمى « بقيام الساعة » . . وفى هذا اليوم يحزن المجرمون . أى الذين ارتكبوا أخطاء فى حق الرسالة الإلهية بكفرهم بها وبصدهم الناس عنها لأنه لم تعد لهم فرصة للتوبة والعدول عن هذه الأخطاء ، بالسير من جديد فى طاعة الله والإيمان برسالته . كما ظهر لهم عجز الأوثان والأصنام التى جعلوها أنداداً لله جل جلاله ، وارتقبوا منها وهم فى الدنيا ، أن تقوم بدور الشفاعة لهم عند الله يوم يكون الحساب : وأنها لا تملك الشفاعة وليست مؤهلة كذلك لأن تقوم بأمر ما . ومن أجل ذلك كانوا بها كافرين . وهكذا : ضاعت عليهم التوبة والرجوع إلى الله بطلب المغفرة ، وإعلان عزمهم وتصميمهم على السلوك مسلك المؤمنين الصادقين . . كما أصبح واضحاً لهم : عجز آلهتهم التى عبدوها من دون الله ، ونصبوها شركاء له : عن مباشرة أى فعل أو حركة تنفعهم ، كما زعموا وهم فى الدنيا . ومن أجل عجزها انتهى أمرهم معها

إلى الكفر بها . وإحساسهم الآن بخسرانهم وبضلالهم فى دنياهم عندما أشركوا غير الله معه فى العبادة : هو احساس بالندم العميق . . « واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ، ولا يقبل منها عدل (أى عدول وتوبة إلى الله) . . ولا تنفعها شفاعة ، ولا هم ينصرون »(١) .

« ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون . وأما الذين كفروا ، وكذبوا بآياتنا ، ولقاء الآخرة ، فأولئك فى العذاب محضرون » . . وقيام الساعة هو يوم الفصل فى مصير الذين بعثوا من قبورهم أحياء للجزاء . . ومصيرهم مختلف . ومن أجل ذلك لا يسيرون فى طريق واحد . بل هم متفرقون . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات يعيشون فى روضة من رياض الجنة ، وهم فرحون ومسرورون بنعمة الله عليهم فى مثواهم . وأما أولئكم الذين كذبوا بهداية الله وكتابه ، وأنكروا البعث والحياة الأخروية فهم يقيمون إلى الأبد فى العذاب .

« فسبحان الله حين تمسون ، وحين تصبحون . وله الحمد فى السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون » . . وعلى المؤمنين من أجل مصيرهم المتميز فى الآخرة بسبب إيمانهم : أن يعلنوا تنزيه الله عن الشريك والند . كما يدعى الكافرون : فى أول النهار وفى آخره . . وأن يعلنوا الثناء عليه جل جلاله . بين ذلك فى العشية والظهيرة . أى بين المساء والصبح . وهو وقت العشية . . وبين الصبح والمساء ، وهو وقت الظهيرة . والقصد من هذا التحديد الزمنى هو أن يستوعب تنزيههم لله وثناؤهم عليه كل وقت اليقظة لديهم . ويقول بعض المفسرين إن هذه الأوقات هى أوقات الصلاة التى جعلت فريضة . فالمساء إذا كان يشمل العصر ، والمغرب ، فالصبح لصلاة الصبح ، والعشاء فى وقت العشية ، والظهر فى وقت الظهيرة . وعلى أية حال فالمطلوب من المؤمنين لقاء ما يدخره الله لهم من نعيم فى

---

(١) البقرة : ١٢٣

الحياة الآخرة : أن يستمروا فى ذكرهم إياه كمعبود واحد ، لا شريك له فى هذا الوجود وبالأخص فى حياة الإنسان .

***

يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

والآن فى جملة من الآيات تعرض السورة « للبعث » .. وإقامة الدليل من صنع الله فى هذا الوجود ، على وقوعه . وإذ تذكر هذه الآيات نماذج من صنع الله ، فإنها تشير بوجه خاص إلى ما يلمسه الإنسان منها فى حياته .. وبما أن « البعث » .. هو إحياء بعد موت ، أو هو وجود الشيء بعد ضده .. أو منه ، فقد اشتملت النماذج التى عرضتها

السورة فى هذه الجملة من الآيات : على الشيء .. ونقيضه . والذى يقدر على إيجاد الشيء بعد نقيضه..أو منه .. لا يعجز إطلاقاً عن أن يمارس الخلق والإيجاد للشيء ونقيضه فى لحظة ما: « يخرج الحى من الميت ،ويخرج الميت من الحى ،ويحيي الأرض بعد موتها » .. فهو سبحانه يوجد صاحب الحياة والحركة مما لا حياة ولا حركة له.كما يوجد الإنسان من النطفة، ويخرج الميت من الحى ، كما ينزع الحياة من الإنسان فيصبح ميتاً ، بعد أن كان ذا حياة من قبل . ويصنع جل جلاله نحو هذا مع الأرض . قد تكون ميتة لا نبت ولا زرع فيها ، ثم تصبح بالماء حية : فيها ما يعبر عن الحياة : من زرع .. وغرس . « وكذلك تخرجون » .. وعلى هذا النحو من خلق الشيء من ضده أو من نقيضه يكون البعث يوم القيامة ، وخروج الناس أحياء من قبورهم بعد أن كانوا موتى فيها . والأمر بالنسبة لقدرة الله على الخلق والإيجاد يكاد يكون أمراً يشبه العادة عند الإنسان فى اليسر والسهولة .

« ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ، ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . وأدارة أولى على قدرة الله الإيجاد والخلق ، للشيء .. ونقيضه : أن خلق الناس أولا كأفراد من التراب ، منتشرين ومفرقين .. ثم أودع فيهم الميل إلى الاجتماع والترابط حتى يصيروا وحدة مترابطة متماسكة . وخلق الله للناس من تراب يمر بمراحل وفترات جاء توضيحها فى قول الله تعالى : « **يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، مخلقة** (أى تامة الخلق)**وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ، لـكيلا يعلم من بعد علم ، شيئاً** »(١) .. وكون الناس أفراداً كثيرة أو قليلة يسبق فى

---

(١) الحج : ٥ .

الوجود : تحقيق ميلهم إلى الاجتماع . وهذا الميل يختص به الإنسان دون الحيوان والنبات ، اللذين هما شريكان للإنسان فى المخلوقية عن التقاء الذكورة بالأنوثة . فالإنسان إذا استهدفت الأنوثة والذكورة فى نوعه : الكثرة والانتشار على غرار ما تستهدفه المزاوجة بينهما فى الحيوان والنبات ، فإنها تختص بهدف لايتجاوز النوع الإنسانى . وهو هدف الاجتماع ، وقيام المجتمع الإنسانى بجانب الكثرة العددية ، والانتشار بين أفراده .

والميل الاجتماعى فى الإنسان يتحقق هدفه بالازدواج بين الذكر والأنثى : « **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً** »(١) (أى ثنائية بين الذكورة والأنوثة) .. وهدف الاجتماع فى النوع الإنسانى هو تحقيق السكنى والاطمئنان النفسى .. والمودة .. والرحمة . فإذا لم يتحقق هذا الهدف فى المجتمع الإنسانى يظل الناس أفراداً منتشرين ، على غرار أفراد الحيوان والنبات . وتضيع بذلك خاصية النوع الإنسانى . ولذا تعلق الآية على خصوصية هذه الأمارة ، بقول الله تعالى : « **إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** »(١) .. فتربط الأقدار بخصوصية هذه الأمارة بأهلية التفكير فى الإنسان . ومعنى ذلك أن خصوصية « الاجتماع » فى النوع البشرى لايذكر بها إلا أصحاب فكر وتأمل . ويغلب على من عداهم أن يقفوا فى فهم الإنسان ، على ظاهرة العدد والكثرة فيه ، على نحو ما فى النبات والحيوان . وبإدراك هذه الخصوصية فى النوع الإنسانى يكون صنع الله فى خلق الإنسان والناس : أنه سبحانه انتقل فى الخلق من التفرق .. إلى التجمع . . ومن الواحدات .. إلى الجماعة والمجتمع . وهو خلق للشيء من ضده .. أو منه.

« ومن آياته خلق السموات والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين » .. وأمارة ثانية على قدرة الله على أنه يوجد المتناقضين .. أو المتقابلين فى هذا الكون من بعضهما ، أو فى علاقة قوية

---

(١) الروم : ٢١ .

بينهما : خلق السموات والأرض . فخلق السموات وهى فوق هذه الأرض ، وخلق الأرض وهى تحتها ، فى اتصال وثيق فى ترابطهما . . وكذلك اختلاف ألسنة الناس وألوانهم . ينبىء عن القدرة الكاملة لله فى إعادة الموتى أحياء ، وبعثهم من قبورهم ليوم الجزاء . وتلك أمارة واضحة للناس جميعاً . فلا يشك إنسان فى مكان ما فى التقابل بين السموات والأرض.. ولا فى التقابل بين الألسنة واللغات .. ولا فى التقابل بين الألوان المختلفة والعديدة . . وتعليق الآية هنا بقول الله تعالى . « إن فى ذلك لآيات للعاملين» ..يفيد شهرة هذه الأمارة ووضوحها فى حجيتها على المطلوب هنا . وهو قدرة الله على « البعث » فهى أمارة لاتحتاج إلى أهلية خاصة فى التفكير .

« ومن آياته : منامكم بالليل والنهار ، وابتغاؤكم من فضله ، إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون » .. وأمارة ثالثة ، هى خلق الليل ، والنهار ، وتقسيم الزمن بينهما : هذا وذاك .. هذا منير .. وذاك مظلم .. فالمنير للسعى فى تحصيل الرزق وفضل الله . والمظلم : للنوم والراحة والاستجام: **« قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة ، من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ، أفلا تبصرون ؟ . ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار ، لتسكنوا فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون »(١)** ويستجيب لهذه الأمارة من لديه استعداد للسمع والطاعة . أما أولئكم الذين دأبوا على الكفر والإنكار فقد لا يرون حجيتها ، ويحسبونها أمراً عادياً لم يستهدف مصلحة الإنسان : فى سعيه .. وفى سكناه .. وطمأنينته .

« ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً ، وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .. وأمارة رابعة على المطلوب فى هذه الآيات وهو الإيمان بالبعث : أن الشىء الواحد من مخلوقات الله قد يتضمن الشىء . . ونقيضه . . فالبرق قد يكون إنذاراً

---

(١) القصص : ٧٢ ، ٧٣ .

يخيف الناس من الصواعق .. وقد يكون بشرى يمهد للمطر ، وعندئذ ينزل من السماء ماء يحيي الأرض بالزراعة والغرس ، بعد موتها وجدبها . فإذا كان الله يخلق الشيء الواحد ، يتضمن النقيضين معاً ، أفلا يخلق النقيض من نقيضه أو يوجد الشيء بعد ضده وتالياً له ؟ . والعقلاء وحدهم هم الذين يستطيعون إدراك حجية هذه الأمارة واستخلاص وجوب إيمانهم بالله وبالبعث فى اليوم الآخر ، منها .

« ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون » .. وأمارة خامسة على قدرة الله على البعث: أن تتحرك السموات والأرض يوم القيامة عندما يأمرها جل جلاله ..وعلى هذا الغرار تخرج الموتى من قبورها وتعود إليها الحياة عندما يطلب إليها الخروج ساعية للقاء الله يوم الجزاء . فأمر البعث ووقوعه لايعدو أن يكون استجابة فورية لدعوة الله ، وأمره : الموتى بالخروج من القبور .

« وله من فى السموات والأرض ، كل له قانتون . وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم » .. فالله سبحانه يملك جميع من فى السموات والأرض. وتدخل جميعها فى محيط قدرته ، وتخضع لإرادته ، لايشذ عنها مخلوق . ولإحاطة قدرته ، وخضوع جميع من فى الكون لإرادته يبدأ الخلق ثم يعيده عند البعث . وإعادة الخلق أهون عليه وأيسر ، إن قيس ذلك بمقياس الإنسان فى صنعته . فالإنسان إذا صنع شيئاً ما لأول مرة ، فإن تكرار صنعه لايشق عليه . بل ربما يكون أيسر له . وتعبير الآية هنا بأن إعادة الخلق — فى البعث — هو أهون على الله لتقريب الحجة على وقوعه . وإلا فليس هناك شيء ينطوى على مشقة أمام قدرة الله الكاملة . فله « المثل » الأعلى ، ونهاية الكمال فى كل صفة يتصف بها ، وفى كل أمر أوجده فى السموات والأرض .. هو العزيز الذى لايغالب إطلاقاً ولا يتفوق عليه شيء ما .. وهو الحكيم فى تقدير ما يوجده ويخلقه ، فلا يتسرب إليه ضعف أو خلل .

***

ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾

وتوجه السورة الخطاب إلى المشركين وتستهجن شركهم بالله . إذ تضرب لهم المثل مما يجرى فى محيطهم ، من شأنه أن يريهم : أن الشرك غير مقبول لديهم ، حسب تصورهم للأمور :

« ضرب لكم مثلا من أنفسكم ، هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فى ما رزقناكم ، فأنتم فيه سواء ، تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ؟ كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون » .. فهل ترضون أيها المشركون : أن يشارككم من تملكونهم من الأرقاء : فى أرزاقكم ، بحيث يكونون

متساوين معكم فيها ، وبحيث تخافونهم كما تخافون أنفسكم وتعملون لهم حساباً كما تعملون لأحراركم ؟ . إنكم لاترضون طبعاً بهذه المشاركة . بل تنفرون منها ، فكيف تشركون بالله وتصدون عن عبادته وحده ، وهو المثل الأعلى فى السموات والأرض ؟ . إن مثل هذا التفصيل يدركه العقلاء وحدهم . ولذلك يؤمنون بالله وحده .

« بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم ، فمن يهدى من أضل الله ؟ وما لهم من ناصرين » .. أما هؤلاء الذين أشركوا بالله فقد اتبعوا أهواءهم فى شركهم به ؛ لم يحكموا العقل بعيداً عن هوى النفس . بل تحكم فيهم الهوى ، بسبب الحرص على الدنيا وما فيها من زعامة لهم ووجاهة بين قومهم . ولكن فى اتباعهم الهوى ظلم لأنفسهم من غير أن يدروا . لأنهم بذلك تعرضوا لسخط الله وغضبه وجزائه بالخزى لهم فى الدنيا ، وبالعذاب فى الآخرة . وهم باتباعهم هوى النفس — دون العقل — أصبحوا فى ضلال وحيرة . ومن يضله الله فليس هناك من يهديه إلى الصراط السوى ، وليس له ناصر ينصره ويحميه من العذاب الذى سيجازى به .

« فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لاتبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون » .. وأما أنت أيها الرسول — صلوات الله عليك — فاتجه مباشرة إلى الدين ، خالصاً وتمسك به . فهو الطريق الذى يتمشى مع الطبائع البشرية فى خصائصها النفسية ، والاجتماعية ، على نحو ما أعدها الله وهيأها بهذه الخصائص . والطبائع البشرية فى خصائصها التى وجدت عليها منذ خلقها ، لاتتبدل ولاتتغير ، والدين الذى يلائمها لايتبدل ولايتغير كذلك فقيمته قيمة ثابتة وأصيلة . ولكن مع وضوح هذه الحقائق فالكثير من الناس يجهلها . ولذا يكفر بالدين . بل قد يصد عن الإيمان به ، فوق كفره به . فدين الله — وهو الإسلام — دين للطبائع البشرية : يتلاءم مع خصائصها ، ولايتبدل .. لأن الخصائص البشرية لاتتبدل كذلك ، مع مرور الأجيال :

فصلاحيته لتوجيه الإنسان ، فوق الزمان والمكان . أى لاتحد صلاحيته بوقت معين ، أو بمكان معين ، فهو مرتبط بخصائص الطبيعة البشرية وحدها : أينما توجد .. وفى أى وقت تكون .

« منيبين إليه ، واتقوه، وأقيموا الصلاة ، ولاتكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، كل حزب بما لديهم فرحون » .. ومن أجل أنه دين الفطرة والخصائص النفسية والاجتماعية التى للإنسان : يجب على المؤمنين به من أتباع الرسول عليه السلام : أن يرجعوا إلى الله خالصاً ، وأن يتحولوا تحولا تاماً عما كان لهم من اعتقاد ، وعادات وتقاليد فى المجتمع الجاهلى ، ويتجنبوا كل مايقع منهم من منكر وفاحشة.. ويقيموا الصلاة كعبادة تربط بين قلوبهم والله جل جلاله ، بحيث يكون هناك فرق واضح بين مجتمعهم الجديد والمجتمع السابق وهو مجتمع الشرك . وإن من خصائص هذا المجتمع : أن يتفرق إلى طوائف وشيع ، على أساس من اختلاف الملة والدين . فالشرك يقوم على الإيمان بشركاء لله . وعلى قدر عدد الشركاء يكون عدد الشيع والأحزاب . ورغم أنه لايوجد حزب من الأحزاب ولاشيعة من الشيع يمثل « الحق » فى ذاته ، فإن هذه الأحزاب والشيع تتمسك فى فرح وسرور بكل مالديها من معتقدات ، أو عادات وتقاليد . والمجتمع الجديد الذى يتحول إليه المؤمنون برسالة الرسول عليه الصلاة والسلام هو مجتمع « الوحدة » فى الألوهية . فهو مجتمع غير ممزق إلى شيع وأحزاب .وبالتالى هو مجتمع واحد متماسك . وبوحدته وتماسكه يتميز عن مجتمع الشرك أو مجتمع الطوائف ، والأوثان .

« وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ، ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون . ليكفروا بما آتيناهم ، فتمتعوا فسوف تعلمون » .. ومع أن مجتمع الشرك — وهو المجتمع الجاهلى — مجتمع أحزاب ، وطوائف ، وشيع .. ومع أن كل حزب فيه فرح بما عنده من دين ، وملة ، أو بما له من « وثن » .. فإن الناس فيه إن

أصابهم مايضرهم فى ثرواتهم ومنافعهم : يرجعون إلى الله وحده ، داعين إياه : أن يفرج عنهم كربهم ، ويحل أزمتهم وشدائدهم . ولكن سرعان ما يتحولون إلى الشرك بالله من جديد ، إن لاحت لهم بشائر الرحمة منه ، وابتدأت أزماتهم تنفرج ، وشدائدهم تختفى . وهكذا : عبادتهم عبادة مصلحة ومنفعة . إن وجدوها عند الله توجهوا إليه بالدعاء . فإذا انقضت عادوا إلى ما كانوا عليه فى الوثنية ، والشرك .. وإلى الكفر بهداية الله التى جاء بها الرسول صلوات الله عليه . وهم إذ يحسون الآن بانفراج أزمتهم وزوال شدائدهم ، ويعيشون فى متع الحياة الدنيا من جديد ،فإنهم سيعلمون مصيرهم.وهو مصير الكافرين الصادين عن دين الله . والحكمة الآن أن يتركوا فيما هم فيه من الاستمتاع برحمة الله ، التى رفعت عنهم الشدائد .. إلى أن يدركهم جزاء الله .

« أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون » .. إن هؤلاء المشركين يتحولون بسبب المصلحة من الشرك .. إلى وحدانية الألوهية .. ثم إلى الشرك من جديد . فماذا يكون الدافع لديهم إلى العودة إلى الشرك ؟ . أهى الحجة التى تعبر لهم ، وتسوقهم نحو الاعتقاد ، فى الأصنام والأوثان ؟. ليست هناك حجة إطلاقاً تقربهم إلى عبادة الأوثان والأصنام ، وترك عبادة الله وحده . وإنما هو الإلف والعادة ، والخشية من فقد « الزعامة » وماتأتى به من منافع .

« وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها ، وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون . أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ، ويقدر ، إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » .. لماذا يفرح المشركون بنعمة الله عليهم ورحمته بهم إن حلت بهم ؟ ولماذا ييأس هؤلاء من الحياة إن أصابهم مكروه فى دنياهم ، وقد يكونون هم سبباً فيه ؟ لو أنهم كانوا يؤمنون بالله،لعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ، ويقدره عمن يشاء . فهو صاحب الأمر فى الأرزاق : يبتلى بها من تعطى له فى بسط ، كما يختبر بها من يحرم منها

أو تعطى له بقدر .. فالابتلاء بالدنيا قائم .. الابتلاء بأرزاقها : الكثير منها، والقليل . فليس لصاحب ثراء واسع أن يطغى بثرائه حتى يشرك أو يكفر بالله . وليس لمحروم أن يضيق بحرمانه فيشرك أو يكفر بالله ، بسبب الضيق والحرمان . ولذا ليس المكروه فى الدنيا وهو الحرمان ، مصدر يأس وقنوط . وليس بسط الرزق فى الدنيا أيضاً مصدر فرح واستغناء لمن يملك هذا الثراء الواسع . إن المشركين لايعلمون ما وراء الأرزاق فى الدنيا من هدف . إنهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا فقط . إن الأرزاق..والتضييق فيها للابتلاء والاختبار .

***

فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ (٣٩) ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠) ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ (٤٢)

ثم توجه السورة الآن الخطاب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين معه فى قول الله تعالى :

« فآت ذا القربى حقه ، والمسكين ، وابن السبيل ، ذلك خير للذين يريدون وجه الله ، وأولئك هم المفلحون » . فتكلفه –كما تكلف المؤمنين–

أن يوصل إلى بقية الأقرباء حقهم فى المال الذى بيد قريب لهم . وبذلك تكون « الأسرة » وحدة لاينفصم بعض أعضائها عن بعض . والتكليف بما تسميه الآية « حق » ذوى القرابة ، وهو تكليف يقضى به التماسك فى الأسرة : أولا عن طريق سد الحاجة لمن هو صاحب حاجة بين أعضائها . وثانياً عن طريق إضعاف روح الحقد فى نفوس من لا يملكون منهم ، إذا لم يعطوا ممن يملكون بينهم . كما تطلب أيضاً : أن يصل حق المسكين ، وابن السبيل إلى كل منهما ، تضامناً للمسلمين بعضهم مع بعض فى مجتمعهم وفى أمتهم . وقد جاء فى تعريف المسكين ، ما يروى فى بعض الأحاديث : « ليس المسكين الذى يطوف على الناس ، ترده اللقمة ، واللقمتان .. والثمرة .. والثمرتان . ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن بـه فيتصدق عليه ، ولا يقوم فيسأل الناس » .. فإعطاء المسكين ، وابن السبيل وهو من قصرت يده عن الإنفاق فى طريقه فى السفر ، بما يشعر كلا منهما أنه موضع الرعاية فى الأمة ككل : من شأنه أن يوطد العلاقات بين الأفراد فيها . ولأهمية هذا العطاء للقريب بالنسبة للأسرة ، وللمسكين وابن السبيل بالنسبة للأمة أطلقت الآية عليه « حقاً » . والحق واجب الأداء لصاحبه ، ممن وجب عليه أداؤه . وليس من المستحسن أن يقال : إن ما جاء فى هذه الآية نسخ بآية الزكاة . فآية الزكاة إن ذكرت فى مصارفها : المسكين . . وابن السبيل . فلم يرد فيها صاحب القرابة . وإعطاؤه هام بالنسبة لترابط الأسرة . فالآية هنا باقية فى مطلوبها . وما ورد فى مصارف الزكاة ، خاصاً بالمسكين وابن السبيل : يكون تأكيداً لشأنهما فى العطاء . وإعطاء الأنواع الثلاثة هنا من ذوى القربى ، والمسكين ، وابن السبيل ، هو خير عمل لمن يقصد وجه الله بعطائه . فليست وراءه غاية أخرى دنيوية مستهدفة ، كالرغبة فى ثناء الناس .. أو الرغبة فى مقابل أكثر . والذين يقصدون بالعطاء وجه الله هم إذن المفلحون .. هم الذين يرضى عنهم الله .. وهم الذين صاحب النجاح عملهم .

« وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربوا عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » . . وتأكيداً لقيمة العطاء لوجه الله، وابتغاء رضوانه فالآية هذه توضح : أن من يعطى لوجه الله فإنه يضاعف عطاءه فى واقع الأمر . وليس ذلك الذى يعطى ابتغاء زيادة يرجوها ممن أعطى إليه . على نحو ما كانت العادة من إهداء صاحب المال هدية لإنسان آخر قاصداً منه أن يرد إليه هذا الإنسان ، أكثر من هديته المعطاة . فالآية تنفى أن يكون العطاء من أجل زيادة المال : أن يزيد العطاء عند الله . وإنما نماء العطاء عند الله يكون بسبب ابتغاء وجهه وحده . فالذى يريد تنمية ماله عند الله بالعطاء يجب : أن لايبتغى به دنياه . كأن يبتغى أن يهدى لإنسان ما هدية كى يردها عليه أزيد مما كانت . فالزيادة هنا لاتضيف جديداً فى الحساب عند الله لمن أعطى .

« الله الذى خلقكم ، ثم رزقكم ، ثم يميتكم ، ثم يحييكم ، هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون » . . وتتجه السورة فى هذه الآية إلى المشركين لتضع أمامهم مجموعة من خلق الله خاصة بالإنسان .. تضع أمامهم . أن الله هو خالق الناس جميعاً — ومن بينهم المشركون — وصاحب الرزق والفضل عليهم .. وهو الذى يميتهم .. وهو الذى يحييهم يوم البعث ، تسألهم : هل فى قدرة واحد من شركائهم الذين جعلوهم أنداداً لله فى العبادة : أن يفعل شيئاً من ذلك ؟ وليس المطلوب فى هذا السؤال أن يجيب المشركون عليه . فإجابتهم عليه واضحة إن أجابوا . وهى أنه لايملك واحد من هؤلاء قدرة على فعل شىء ما ، فضلا عن أن يكون مساوقاً لفعل الله وخلقه . والله يعلم ذلك مسبقاً . ولكن المطلوب أن يسجل القرآن عليهم عجزهم فى الحجة على إنكار البعث . فهم إن كفروا..وإن أشركوا..وإن أنكروا البعث فى الآخرة،يفعلون كل ذلك، لا عن حجة قائمة.ولكن لذات المعارضة للرسول عليه السلام ولرسالته،احتفاظاً بزعامتهم فى مكة . وهى زعامة دينية فى نظام الكهانة القائم إذ ذاك . والله

جل جلاله فوق ما يعارضون ، ومنزه عن الشرك وما يعبثون بـــه في الادعاء .

« ظهر الفساد في البر والبحر ، بما كسبت أيدى الناس ، ليذيقهم بعض الذى عملوا ،لعلهم يرجعون » .. وتشاء إرادة الله من وقت لآخر : أن يظهر في المجتمع البشرى : القحط ،ونقص المحاصيل الزراعية والحيوانية كما يسود الخوف والتهديد بفناء البشرية بسبب الأنانية في توزيع الثروة ورزق الله في هذه الأرض . كما هو واقع الآن وهو فساد يعم البر والبحر والهواء ، بسبب أعمال الناس السيئة . فليس هناك توازن في نعم الله بين الدول النامية . . من جهة ، والدول الأخرى المتقدمة صناعياً من جهة أخرى . فبينما بعض الشعوب تعانى من الجوع وتخشى التهديد من مراكز القوى التى قامت بعد الحرب العالمية الثانية ، إذا بالبعض الآخر يشكو من التخمة والترف في حياة الأفراد ؛ كما يعلن عن الاستعداد لمواجهة التهديد الاجتماعى ، في الوقت الذى يملك فيه الأمر لتهديد من حوله ، ومن هم على بعد آلاف الأميال منه .

وظهور الجوع .. والخوف بسبب سوء أعمال الناس في المجتمعات البشرية من وقت لآخر ، حسبما يريد الله ، ليذكر الناس بسوء أعمالهم وليذيقهم طرفاً من آثار هذا السوء وجزائه لعلهم يعودون إلى الله،ويتبعون سبيله . وهو سبيل الخير للبشرية جميعها . فمتى ظهر الجوع والخوف في المجتمعات البشرية ، كان ذلك أمارةعلى إنذار الله بعدم رضاه عن مسلك الناس تجاه بعضهم بعضاً . فلا يظهر جوع إلا بسبب ظلم القوى للضعيف ، وعدم اتباعه العدل بينه وبين من عداه . ولا يظهر خوف إلا إذا كان الطغيان بالقوة أو بالعصبية والحزبية قائماً ، ضد من لا يملكون القوة ومن لا تساندهم عصبية . فإذا انتهى أمر الجوع .. وانتهى أمر الخوف كان ذلك أيضاًبفضل

الله ومشيئته ، وكان أمارة على رجوع بعض الناس إلى الحق واتباع سبيل العدالة الإلهية . وكذلك إذا ظهر فى المجتمع الواحد .. الجوع . . والخوف فظهور ذلك أيضاً أمارة على اعوجاج سلوك الناس بعضهم تجاه بعض فى هذا المجتمع .. أمارة على عدم العدل بين أفراد المجتمع ، وعلى التهديد بالقوة والاعتماد عليها وحدها فى إخضاع الناس للحكم وسلطانه .

« قل سيروا فى الأرض فانظروا : كيف كان عاقبة الذين من قبل، كان أكثرهم مشركين » .. ولكى يتبين لكم أيها المشركون بمكة : أن ما يحل بقوم أو بمجتمع من جوع ، وخوف ، فى فترة ما : هو بإرادة الله ، ونوع من الجزاء للأفراد .. فى مجتمع الجوع والخوف على سوء صنيعهم ، كإنذار لهم : يجب عليكم أن تراجعوا تاريخ المجتمعات فى كفرها وفى إيمانها برسالة الرسول الذى أرسل ، أو أن تتبعوا الآثار التى لم تزل باقية ، كعلامة على ما وقع من جزاء لهم من الله . وستقفون على مدى الجزاء الذى انتهى إليه مصير الكافرين بالرسالة الإلهية وبالتالى على سوء أعمالهم . وكان كفرهم قائماً على الشرك والوثنية فى معظم أحواله .

***

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾

وأنت أيها الرسول ــ عليك صلوات الله ــ مأمور من مولاك جل شأنه أن توفر نشاطك وتخلص فى دعوتك إلى رسالة الله بحيث يكون اتجاهك إلى الدين وحده . فهو دين ثابت القيمة على ممر الزمان والأجيال : « فأقم وجهك للدين القيم ، من قبل أن يأتى يوم لا مرد لـه من الله ، يومئذ يصدعون » .. وذكر به المؤمنين وبلغه للناس جميعاً حتى تكون لديهم

الفرصة منذ الآن للوقوف عليه واتخاذ موقف منه ، قبل أن يحل يوم الحساب . وهو يوم لا رجوع فيه . والناس يومئذاك ينقسمون فيما بينهم :

« من كفر فعليه كفره ، ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون » .. فالكافر فيهم سيلقى جزاء كفره ، وهو واقع عليه لا محالة . والمؤمن بالله والمهتدى بهديه فى الأعمال التى يأتى بها — وهى أعمال صالحة — فإنه بإيمانه وبأعماله الصالحة يمهد لنفسه الطريق إلى نعم الله وفضله فى جزائه.

« ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله ، إنه لا يحب الكافرين » .. وسيكون جزاء المؤمنين الذين يعملون الصالحات من فضل الله ونعمته عليهم . فهو جل شأنه لا يحب الكافرين . ولذا ليس لهم مكان فى الآخرة إلا جهنم .

وتستمر السورة فى الحديث عن نعم الله على الإنسان التى توجب عليه أن يشكر الله على هذه النعم بالإيمان برسالته واتباعها فى عمله وفى علاقته بالآخرين .

★★★

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

« ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات ، وليذيقكم من رحمته ، ولتجرى الفلك بأمره ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » . . .

ولأن الزراعة هى المصدر الأساسى — حتى على عهد الحضارة الصناعية — لمعيشة الإنسان كان التنبيه إليها من شأنه أن يوجه نظر الإنسان إلى دراسة عواملها التى تساعد على نموها ووفرة محصولها. وسيصل الإنسان من دراسة هذه العوامل إلى الإيمان بخالقها وموجدها وهو الله سبحانه وتعالى. فهذه الآية تتحدث عن الرياح كعامل فى دفع السحاب ونزول المطر فى الأمكنة التى تحتاجه . وبذلك توفر من محاصيل الزراعة وما يتبعها من تربية الحيوان ، لمعيشة الإنسان فى الأكل ، والشرب ، والملبس ، والانتقال

من مكان إلى مكان آخر ما يلمسه فى حياته اليومية . وهذا وذاك من رحمة الله على الإنسان . وبجانب دفع الرياح للسحب وسوق ما تحمله من أمطار إلى الجهات التى تنتظرها ، فإنها تساعد كذلك الفلك على السير فى البحار بإذن الله . وبجريان الفلك على الماء يستطيع الإنسان أن يحصل بسعيه وعمله على رزق آخر من فضل الله . وهو رزق التجارة . وهكذا : إذا كانت الأمطار التى تسوقها الرياح تمكن الإنسان من الماء العذب ، والخصوبة . والأشجار والنبات . . وصحة الأبدان تبعاً لذلك : فإنها تمكن الإنسان أيضاً من مباشرة التجارة عن طريق الفلك وعبورها مياه الأبحار الشاسعة. وبذلك يجتمع مصدران للرزق ، هما : مصدر الزراعة.. ومصدر التجارة. وكلاهما تبشر الرياح بهما . وكان من مقتضى النظر فيما تبشر به الرياح من رحمة الله وفضله على الإنسان : أن يشكر الإنسان ربه بالإيمان بوحدته فى الألوهية ، وباتباع هدايته فى قرآنه التى هى رسالته للناس أجمعين . ولكن الإنسان هو الإنسان . القليل من أفراده هو الذى يصل من خلق الله إلى الإيمان بالله . والكثير منهم يظل عند عدم الإيمان بالله ، واليوم الآخر . وهذه سنة طبيعية . إذ الوقوع تحت إغراء الدنيا ومتعها يحيط بالكثرة الكثيرة من الأفراد . والقليل هو الذى يخرج أو يعزل نفسه عن هذا المحيط .

« ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا ، وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » . . وأنت أيها الرسول — صلوات الله عليك — لا تعجب ولا تدهش عندما ترى المشركين بمكة يكفرون برسالتك ، رغم وقوفهم على نعم الله عليهم سواء من التجارة ، أو الحرث ، والأنعام . فكفرهم ظاهرة اجتماعية ، لازمت أقواماً آخرين سبقوك من قبل ، عندما أرسلت لهم رسلهم بالمعجزات وبما يوضح لهم الحجة على وحدانية الله فى ألوهيته . ومع ذلك كفروا به

وباليوم الآخر للحساب . وإزاء هذه الظاهرة : صنع الله مع من يفكر .. وصنيعه أيضاً مع من يؤمن . فانتقام الله مرتبط بإجرام المجرمين . وهم المشركون الكافرون . ونصر الله مرتبط كذلك ، بإيمان المؤمنين . فنصر الله حق عليه تبارك وتعالى . . وانتقامه واجب كذلك وبالأمرين معاً يتحقق العدل الإلهي بين الناس : المسيء منهم ، والمحسن على السواء .

« الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء ، ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله ، فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ، وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله ، لمبلسين » ..

وتعيد هذه الآية تفصيلا لفعل الرياح مع السحب ، حتى نزول الأمطار عن طريقها : فهى تحرك السحب .. وتوزعها فى أفق مرتفع على حسب مشيئة الله . . ثم تكتلها كتلة كتلة . . ثم يسقط المطر من هذه الكتل. وبنزول المطر يفرح من ينزل عندهم ، ويستبشرون خيراً بالنسبة لمستقبل الزراعة ، والأشجار ، والحيوان ، بعد أن كانوا مهمومين — وربما كانوا يائسين — قبل أن يسقط المطر ، بالنسبة لمستقبل الثروة الزراعية والحيوانية على السواء .

« فانظر إلى آثار رحمة الله : كيف يحيي الأرض بعد موتها ، إن ذلك لمحيي الموتى ، وهو على كل شيء قدير » ..ويكفى أن ينظر الإنسان إلى هذه الآثار للمطر فى الزراعة والحيوان ، — ولا شك أنه من رحمة الله على الإنسان — فيدرك توآً : أن الله بالمطر أحيا الأرض بعد موتها ، وأخرج منها الزراعة والحدائق ، والأشجار ، بعد أن كانت جرداء . وينتقل من هذا الإدراك إلى الإيمان بالبعث . وهو أن الله يحيي الموتى فى قبورهم ، ويجمعهم إلى يوم الحساب . إذ لا فرق بين إحياء الأرض بالمطر بعد موتها ، وإحياء الناس بعد موتهم فى قبورهم . فالله صاحب القدرة

الفائقة على كل شيء . ويستوى أمام قدرته : إحياء الأرض أو إحياء الإنسان .

« ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلوا من بعده يكفرون . فإنك لا تسمع الموتى ، ولا تسمع الصم الدعاء ، إذا ولوا مدبرين . وما أنت بهاد العمى عن ضلالتهم ، إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » وإذا كانت الرياح التى تحمل المنافع لهم فى ثروتهم الزراعية والحيوانية لا توقظ الاتجاه فيهم إلى الإيمان بالله : فكذلك الريح الباردة أو الحارة التى تضر بثروتهم الزراعية لا تحرك فيهم عندما يرون لون الزرع قد تحول من خضرة إلى صفرة : أن يدركوا : أن كفرهم بالله سبب للانتقام منهم . فابتلاء الله كما يكون بالخير والمنفعة يكون بالشر والضرر .

ولست مطلوباً منك أيها الرسول صلوات الله عليك : أن يستجيب لدعوتك : موتى القلوب ، ومن عندهم صمم فأنت لا تهدى العمى ولا تنقلهم من ضلالهم وحيرتهم إلى نور الهداية ويقينها . إذ من يستجيب لدعوتك هو من عنده استعداد أن يؤمن بكتاب الله ويدخل فى عداد المسلمين .

* * *

* ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾

« الله الذى خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة ، يخلق ما يشاء ، وهو العليم القدير » . . والخطاب فى الآية يوجه إلى المشركين المكيين ، كذلك إلى من عداهم من الناس جميعاً . فما جاء فيها يتصل بتطور الإنسان أى إنسان . يحس به ويراه فى نفسه كل إنسان . وهذا التطور الذى يدركه كل إنسان فى نفسه ينطوى على دليل واضح على قدرة الله . سواء فى الخلق ، أو فى إعادة ما خلق ، كإحياء الموتى عند البعث . فالإنسان يمر بمراحل فى نشأته ونموه . ففى أول أمره يكون ضعيفاً . . يكون نطفة من ماء مهين . ثم يتحول من هذا الضعف إلى قوة فى شبابه . . ثم تتحول قوته إلى ضعف فى شيخوخته وكهولته . فالذى يصنع هذا التطور من الشيء إلى ضده أو نقيضه قادر قطعاً على خلق ما يشاء . وهو إذ يخلق ما يشاء ؛ يخلق عن علم كامل وقدرة فائقة .

« ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون : ما لبثوا غير ساعة ، كذلك كانوا يؤفكون . وقال الذين أوتوا العلم والإيمان : لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث ، فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون . فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون » . . وعندما تقوم

الساعة ويحل موعد الجزاء يحاول هؤلاء الذين أجرموا فى حق أنفسهم أولا . .. وكذلك فى حق الإنسانية أن يعتذروا عن إجرامهم بإنكارهم البعث فيقسمون : أنهم لم يلبثوا فى قبورهم إلا ساعة واحدة وكأن حياتهم ممتدة لم تنقطع . فما يجىء الآن هو لاحق لما كان لهم فى الدنيا، ومرحلة القبر إذن لا تعبر الآن عن انقطاع تام فى الحياة . بل حياتهم موصولة. ولذا لا ينكرون البعث. لأن حياتهم فى القبور كانت حياة خاطفة لا تمثل انتهاء لما مضى ، ولا ابتداء لما يأتى من حياة جديدة وهكذا : بهذا الاعتذار يصرفون عن الحق ، كعادتهم ، ولكن من أوتى العلم والإيمان من الموجودين معهم يوم القيامة يكذبهم فيما يقسمون عليه . وينبههم إلى أنهم لبثوا مدة من انتهائهم فى الحياة الدنيا بالموت إلى بعثهم أحياء من جديد فى يوم البعث ولكن فقط لا يعلمون ذلك . فمن أوتى العلم والإيمان شهد ببعثهم . أى شهد بأنه مرت عليهم فترة كانوا فيها أمواتاً. ثم جاء يوم البعث فأخرجهم الله أحياء من قبورهم. وإذن اعتذارهم هو تجاوز للحق كعادتهم فيما يقولون أو يدعون . وعلى أية حال لا ينفع هؤلاء الظالمين لأنفسهم : اعتذارهم ، كما لم يطلب من أحد أن يعاتبهم . فالوقت قد مضى . وليس هناك إلا سوقهم إلى موقع الجزاء .

***

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

« ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ، ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا : إن أنتم إلا مبطلون . كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون . فاصبر إن وعد الله حق ، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون » .. وفى نهاية السورة تعلن : أن ما جاء فى القرآن من

توضيح لمبادىء الدعوة بلغ أمره القمة وأصبح مثلا فى الوضوح ٠ ٠
والبيان. وبرغم وصول الأمر فى الحجة والوضوح إلى الكمال والمثل
الأعلى ، فإن المعارضين للرسالة والكافرين بالبعث إن جئتهم بأمارة على
صدق الرسالة والرسول قالوا على وجه التأكيد : إنكم تأتون بالباطل ٠
وهكذا يختم الله على قلوب هؤلاء الكافرين فلا يفقهون ما يتلى عليهم ،
وليس لهم استعداد لأن يفقهوه يوماً ما ، فضلا عن أن يؤمنوا به ٠
وأنت يا صاحب الرسالة — صلوات الله عليك — يجب أن تصبر على
حمقهم ، وجهالتهم ، ومعارضتهم ، لدعوتك التى لا تقوم على حجة
أو بينة ٠ فوعد الله لك بالنصر عليهم ، وبأن لا يصيبك أذى منهم :
هو وعد حق وصادق ٠ واحذر فقط : أن يستفزك هؤلاء الذين لم
يصلوا إلى يقين فى أنفسهم ولا إلى ما ينكرونه من الرسالة .

***

كتب للمؤلف

1 – الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى الطبعة الثامنة
2 – تهافت الفكر المادى التاريخى بين النظرية والتطبيق الطبعة الثانية
3 – الإسلام فى حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة الطبعة الثانية
4 – خمس رسائل للشباب المسلم المعاصر الطبعة الثانية
5 – الجانب الإلهى من التفكير الإسلامى الطبعة الثامنة
6 – الفكر الإسلامى فى تطوره الطبعة الثامنة
7 – الإسلام فى حياة المسلم الطبعة الخامسة
8 – رأى الدين بين السائل والمجيب – جزآن معاً – مزيدة منقحة الطبعة الثانية
9 – رأى الدين بين السائل والمجيب – الجزء الثالث الطبعة الأولى
10 – نحو القــرآن الطبعة الأولى
11 – القرآن والمجتمع الطبعة الأولى
12 – الدين والدولة من توجيه القرآن الكريم الطبعة الثانية
13 – من مفاهيم القرآن – فى العقيدة والسلوك الطبعة الأولى
14 – منهج القرآن – فى تطوير المجتمع الطبعة الأولى
15 – القرآن الكريم .. يقول الطبعة الأولى
16 – المجتمع الحضارى وتحدياته من توجيه القرآن الكريم الطبعة الأولى
17 – القرآن .. فى مواجهة المادية الطبعة الأولى
18 – الإسلام فى الواقع الأيديولوجى المعاصر الطبعة الثامنة
19 – طبقية المجتمع الأوروبى وانعكاس آثارها على المجتمع الإسلامى الطبعة الثانية

تطلب من : مكتبة وهبة : ١٤ شارع الجمهورية — عابدين — القاهرة
تليفون : ٩٣٧٤٧٠

للمؤلف : فى التفسير الموضوعى للقرآن الكريم

أولا تفسير : السور المكية :

١ – سورة النساء

٢ – سورة الأنعام

٣ – سورة الأعراف

٤ – سورة يونس

٥ – سورة هود

٦ – سورة يوسف

٧ – سورة الرعد

٨ – سورة إبراهيم

٩ – سورة الحجر

١٠ – سورة النحل

١١ – سورة الإسراء

١٢ – سورة الكهف

١٣ – سورة مريم

١٤ – سورة طه

١٥ – سورة الأنبياء

١٦ – سورة المؤمنون

١٧ – سورة الفرقان

١٨ – سورة الشعراء

١٩ – سورة النمل

٢٠ – سورة القصص

٢١ – سورة العنكبوت

٢٢ – سورة الروم

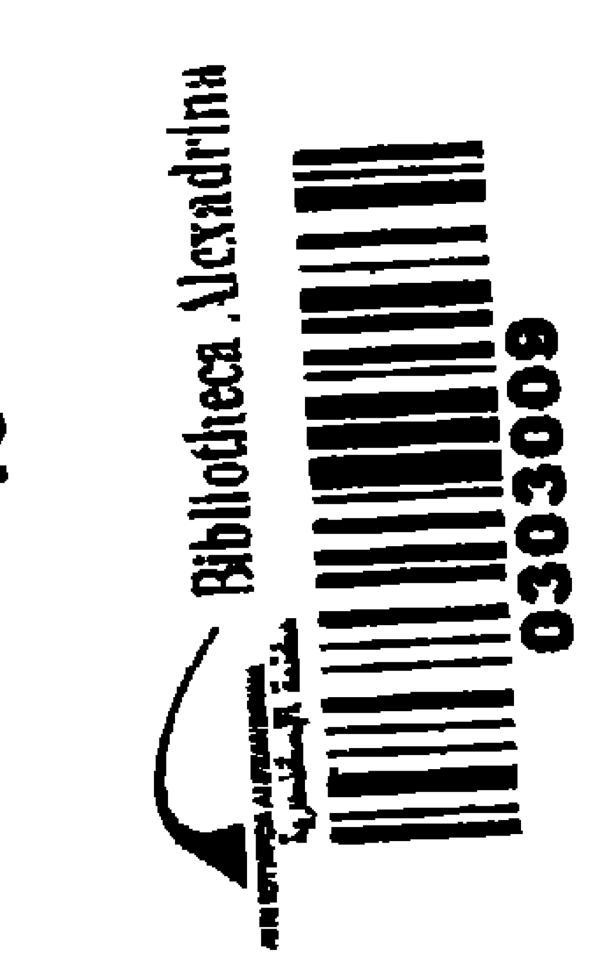
٢٣ – سورة الصافات

٢٤ – جزء عم

رقم الايداع بدار الكتب ٣٨٧٧/٨٠
الترقيم الدولى ٤ ـ ٢ ـ ٠٢ ـ ٧٣٣٥ ـ ٩٧٧

دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
تليفون : ٢٢٠٧٩

22



دار غـريب للطبـاعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
تليفون : ٢٢٠٧٩